كانط (1724-1804)

مقدمة:

فيلسوف ألماني، يعرف في تاريخ الفلسفة بأنه صاحب المذهب النقدي حيث نشر كتبه النقدية الثلاث "نقد العقل الخالص" أوضح فيه أن العقل حاصل بذاته على شروط المعرفة النظرية (1781)، وفي عام (1788) أصدر كتابه النقدي الثاني "نقد العقل العملي" ذهب فيه إلى أن القواعد الأخلاقية مصدرها العقل لا التجربة، وهي تتصف بالضرورة والكلية. أما كتابه النقدي الثالث بعنوان "نقد ملكة الحكم" فهو يمثل وجهة نظر كانط الجمالية والتوفيق بين الضرورة العقلية وبين الحرية.

كما أصدر العديد من الكتب الأخرى أهمها "أسس ميتافيزيقا الأخلاق" و "الدين في حدود العقل وحده" و "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصبح علماً" وفي عام 1795 كان كتابه "مشروع السلام الدائم" وغيرها....

حاول كانط في فلسفته أن يقف عند حدود معارف العقل: كيف يعرف العقل العالم؟ وما الحدود التي يجب أن تقف عندها معرفة العقل للعالم؟ و وجد أننا يمكن أن نعرف العالم تحت بابين: المعرفة العلمية من جهة والمعرفة الأخلاقية من جهة ثانية. فصاغ أسئلته الثلاث الشهيرة: ما الذي يمكن أن نعرفه؟ وما الذي يجب أن علينا أن نسلكه؟ وما الذي نأمله؟ و الإجابة كانت واضحة في كتبه النقدية الثلاث ومحور فلسفته ككل.

أولاً: المسألة النقدية:

يبدأ كانط فلسفته بنقد العقل وقدرته على التفكير في قضايا ميتافيزيقية، ونسبة الحقيقة في هذا التفكير، عن طريق تبيان حدوده وقدراته والوقوف على حقيقة ادعاءاته بمعارف تجاوز الطبيعة، والتي ما انفك العقل يقع في التفكير فيها، بمتاهات وتناقضات، والنقد عند كانط لايعني الشك المطلق عند ديكارت، لأن هناك علمين قائمين لا تختلف فيهما العقول: العلم الرياضي والطبيعي، وإنما حاول معرفة مدى ما يسمح به للعقل من مناقشة قضايا تجاوز حدود التجربة؟ وللإجابة على هذا التساؤل يبرهن كانط أن معرفتنا لا تتعالى على التجربة ومع ذلك فهي أولية لا يستدل عليها استقرائياً من التجربة، وهذه مفارقة يسير كانط قدماً في النقد لحلها. فيميز بين نوعين من الأحكام: الحكم التركيبي والحكم التحليلي (لأن المعرفة بنظره تقوم على الحكم وهو: الفعل العقلي الذي يحتمل الصدق والكذب ولابد من عرض مختلف أحكامنا لنبين نوع الحكم الذي يعتمد عليه العلم وننظر في خاصيته وطرق تأليفه.

فالأحكام التحليلية: يكون المحمول فيها جزءاً أو متضمن في الموضوع ولا يضيف شيئاً إلى مضمون المعرفة كقولنا "الجسم ممتد" فأنا لم أتوسع في مفهوم الجسم واكتفيت بتحليل هذا التصور لأن الامتداد متضمن في مفهومنا عن الجسم قبل الحكم مع أنه لا يشير إليه صراحة. وهي أحكام تعتمد مبدأ عدم التناقض فهي كلية وضرورية كمبدأ الذاتية الذي تعتمد عليه، لا استثناء فيها ولا احتمال لأن نفيها يوقع العقل في الخطأ. وهي أحكام أولية قبلية مستقلة عن كل خبرة حسية. وهي أحكام تفسيرية لا تفيد في إقامة العلم لأن المحمول لا يزيدنا معرفة بالموضوع كما قلنا.

الأحكام التركيبية: يزيدنا فيها المحمول معرفة بالموضوع لأن المحمول غير متضمن في الموضوع كقولنا: "بعض الأجسام ثقيلة" فالمحمول "الثقالة" غير متضمن في الموضوع "الجسم" أو التصور العام للجسم فنحن نعرف بالتجربة أن الجسم خفيف أو ثقيل. والأحكام التركيبية تستلزم مبدأ آخر غير مبدأ عدم التناقض، وهي أحكام توسعية وكل الأحكام التجريبية هي أحكام تركيبية. ويميز كانط في الأحكام التركيبية بين أحكام إحساس: وهي تقوم على الشعور الشخصي أي مرتبطة بإحساس هذا الشخص أو ذاك كقولي: الحجر ساخن، الشمس تسطع، السكر حلو.... وهي لا تضطر غيري إلى تصديقها. وأحكام تجربة: وهي أحكام موضوعية صادقة بالنسبة للجميع، تعبر عن علاقة ضرورية بين الموضوع والمحمول ومستقلة عن إحساسي الشخصي مثل قولي: ضوء الشمس يسخن الحجر، فضوء الشمس هو علة سخونة الحجر، وهذه الأحكام هي التي يتألف منها العلم. فالمسألة النقدية ترجع إلى: كيف تكون هذه الأحكام التركيبية الأولية (والأولية هنا الضرورة والكلية) ممكنة؟ مع العلم أن الموضوع والمحمول مستفادان من التجربة، وأن هذه التجربة متغيرة ومتبدلة، ومع ذلك فهي أحكام تجمع صفات العلم وشروطه وهي الضرورة والكلية. فمن أين حصل هذا الحكم على شروطه التي تجعل منه حكماً علمياً؟

لنبين أولاً أن العلوم تتألف من أحكام تركيبية أولية. مثال "الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين" فالمحمول أقصر مسافة... ليس متضمناً في الموضوع الذي هو "الخط المستقيم" فهما متخارجان وليس متداخلان. فالموضوع يرجع إلى الكيفية (الاستقامة صفة للخط) والمحمول يرجع إلى الكمية والإضافة ومع ذلك فالعلاقة بينهما كلية وضرورية، أي هذا الحكم التركيبي أولي.

الحكم التالي: 5+7=12 فلا فكرة 7 ولا فكرة خمسة تتضمنان فكرة 12.

ومثال آخر على الحكم في العلم الطبيعي: " في جميع تغيرات العالم المادي المادة تظل كميتها ثابتة لا تتغير" فمعنى المادة لا يتضمن معنى عدم تغير الكمية. فكيف نحصل على هذه الأحكام؟

الأحكام الرياضية خاصيتها التركيبية آتية من تصور حدودها في المخيلة: فأنا أحصل على الخط المستقيم وعلى النقطتين بواسطة الخيال. وأحصل على العدد 12 من إضافة العدد خمس مرات إلى العدد 7.

أما الأحكام الطبيعية فخاصيتها التركيبية آتية من كون حدودها ظواهر مدركة بالحس، أما الأولية في هذين النوعين من الأحكام آتية من كون الفكر حاصلاً على معان رابطة يطبقها على الحدود. أما الميتافيزيقا فإذا نظرنا إليها وجدنا حدودها وهي: العالم بجملته والنفس والله غير محسوسة ولا متخيلة. وهي أحكام تركيبية أولية كما عرفناها ولكن التركيب فيها ظاهري: أي تركيب معان صرفة لا تعتمد على الحس ولا على الخيال فهي لا تتصف بالموضوعية ولا تستحق أن تكون علماً لأن المعرفة العلمية هي المعرفة التي تقوم بالحس والفهم والتي مصدرها الادراك الحسي والتفكير.

والمعرفة عند كانط تتألف من المادة والصورة، والمادة تأتينا عن طريق انطباعنا حسياً بالموضوعات الخارجية نتيجة قابليتنا لتلقي تلك الانطباعات والتي يسميها كانط بالحساسية. والمادة موضوع الحدس الحسي وهي معطى بعدي. بينما الصورة، والتي مصدرها قدرتنا العارفة هي رابطة في الفكر تسمح بتركيب حكم كلي ضروري لأنها هي أولية فقدرتنا على الربط والفهم ليست متوقعة على التجربة. فمثلاً مبدأ العلية موجود في الذهن منظم للتجربة وليس معطىً بواسطتها. والعقل بحاجة إلى مران طويل للتمييز بين المعطى الخارجي أي مادة المعرفة وبين الصورة التي تصدرها قدرتنا العارفة. فالمعرفة ليست انعكاس الموضوعات الخارجية في فكرنا عن طريق الانطباعات الحسية كما يرى أنصار التيار التجريبي، بل الحكم الذي يصدره فكرنا على هذه الموضوعات، بوصفه حكماً كلياً وضرورياً أي حكماً علمياً.

وكانط لا يتشكك بوجود العالم الخارجي لأن هناك مادة للفكر أو وجود خارجي يقّر به وكل معرفة آتية من العقل الخالص هي معرفة ظاهرية لأن الحقيقة لا توجد إلا في التجربة. ومهمة العقل ومعانيه توحيد مدركات الحس أو بتعبيره "توحيد التجربة".

ونقد المعرفة لديه يقوم على تبيان ما هو آتٍ من الخارج وما الذي يضيفه الفكر إليه من عنده وهذا الذي يضيفه الفكر يسميه كانط "بالترانسندنتال" أي الصورة في المعرفة: وهو مبدأ ذاتي للفكر متقدم على التجربة منطقياً لا زمنياً ووظيفته جعل المعرفة ممكنة أي تركيب موضوعات

محسوسة وأحكام كلية، وإذا استخدم على هذا النحو فهو مشروع، وقد يطبق اعتباطاً خارج حدود التجربة أي على مطلق الوجود، فيأخذ قيمة خاصة بالرغم من أنه صورة بحتة وهذا يسميه "الترانسندنت". فالأول: صوري مقابل المادة الآتية من الخارج والثاني مفارق في مقابل التجريبي.

والمعرفة البشرية تنطوي على ثلاث ملكات ترد الكثرة إلى الوحدة:

الحساسية، الفهم، النطق وسندرس كل منها بالتفصيل.